المزارع المفكر

يطمعون فينا بسببنا

الدكتور عبد الستار قاسم

دعاني مزارع بسيط لاحتساء كأس من الشاي ولكي يقول لي شيئا عن الحرب على العراق ومجمل الإذلال الذي يتعرض له العرب والمسلمون. قال: "أنتم المثقفون لا تعقلون!" وشرح بأنه يستمع إلى المثقفين عبر التلفاز وشروحاتهم حول النوايا الأمريكية والإسرائيلية الشريرة بخصوص المنطقة، لكنه لا يجد حكمة فيما يقال وذلك إما لأن المثقفين مدجنين نحو زوايا معينة أو لأنهم جبناء يخشون الحكام. في كلتا الحالتين، المثقفون لا يصيبون كبد الحقيقة. سألته عما يرى فضرب لي مثل الرجل المهمل المستهتر الذي يترك باب بيته مفتوحا بدون عناية أو عين عليه ويدرب أبناءه على تفحص خطط ومؤامرات الغير الذين ينتهكون حرمات البيت ويعبثون به. المعتدي في البيت والمثقفون يحللون نواياه وخططه وأعماله. واستنتج قائلا بأن المشكلة ليس في الذي يجد مطية فيركبها لكن المشكلة في المطية التي تجعل ظهرها مركبا.

أضاف شارحا بأن إسرائيل تسرح وتمرح على مدى عشرات السنين في الوطن العربي وتقتل الفلسطينيين وتشردهم، ونحن العرب لا نملك إلا أن نجري كالولد المدلل التافه إلى مجلس الأمن ليتحرك ضدها وردعها عن أعمالها. دويلة صغيرة كقبضة يد تغلبنا على الدوام وتضع رؤوسنا في الرمال. فهل المذنب الصهيونية وأمريكا أم نحن الذين لا نتقن غير الصراخ والعويل؟ وأضاف غاضبا: "الكلبة تدافع عن صغارها بعزة وفداء أما نحن فلا نتقن سوى الزمجرة الفارغة والتهديدات." شكوانا إلى الأمم المتحدة لم تتوقف وزحف الصهاينة علينا يتمدد. وقال مخاطبا بأن المثقفين يغرقون في ذم الصهيونية وهجوها، ولكن ماذا بعد؟ علمنا أن الصهاينة عبارة عن شياطين الجن والإنس وهم متآمرون وقتلة ومصاصو دماء وغدارون ومخادعون وملعونون في الدنيا والآخرة، فهل نبقى نترنم على هذه الألحان المملة؟

قال بأن إيران والعراق وسوريا علمت بأنها دول مستهدفة من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل وأنها لا مفر ستواجه العدوان الأمريكو-إسرائيلي، لكنها بقيت تنتظر ساعة الصفر. وقد شرح أنه استمع إلى ندوات تلفزيونية كثيرة تتحدث عن النوايا الأمريكية الشريرة والتحريض الإسرائيلي البغيض، لكن ذلك بالنسبة له لم يكن مهما لأن هذه الدول المعنية لم تتخذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن نفسها وتركت بيوتها بدون أسوار من حديد. بقيت الدول هذه على خصام أو عدم تآلف تنتظر كل منها دورها في التدمير. لم تستطع تأجيل خصوماتها الداخلية لغاية غياب الخطر الداهم فظهر أن الثور قد تعلم الدرس بصورة أسرع مما تتعلمه الدول. ثم سأل: "هل المشكلة عند الصهاينة وأمريكا أم عندنا نحن؟

ويبدو أن صديقي المزارع قد استلهم فكرا سياسيا عميقا عندما قال لي: "أنظر، أراد العراق أن يحارب أمريكا بشعب لا يعرف طعم الحرية." واستفاض في شرح الاستبداد وما يجلبه من فساد وسوء إدارة وسرقة أموال وتفتيت للشعب وإهمال للأخلاق الفاضلة. هذه الدول العربية حسب رأيه لا يمكن أن تنتصر في حرب ضد إسرائيل أو أمريكا حتى لو امتلكت كل الطائرات والمدافع والدبابات والصواريخ التي وصفها بالشاطرة (أي الذكية). لقد امتلك العرب عام 1967 قوى عسكرية هائلة لكنهم ولوا الأدبار مع أول رصاصة إسرائيلية تنطلق؛ أما حزب الله فامتلك الإرادة القوية والعقيدة الصلبة والعزيمة مع قليل من السلاح فولت إسرائيل الأدبار. سألته عن السبب فأجاب بأن دولنا مهزومة من الداخل والمواطن مقموع مظلوم يخشى أجهزة المخابرات وقوى

الأمن. فمن أراد أن ينتصر على عدو خارجي عليه أن ينتصر على نفسه أولا. وهل نتوقع أن يحارب أحد عن نظام يتمنى كل يوم مائة مرة أن يغرب عن وجه الأرض؟ أنظمتنا أجبرت العربي على أن يرى خلاصه من براثنها في عدو الأمة.

المخابرات قتلت قلوب الناس، حسب قوله. أجهزة المخابرات مجرمة وكل من ينتمي إليها سافل ومنحط، والأنظمة التي ترعاها خائنة. وسأل: "ما الجدوى من خطابات رنانة وكلمات ناعمة تصدر عن حاكم عربي مجرم يمنع شعبه من الكلام؟" المجرمة ليست إسرائيل وليست أمريكا وإنما هؤلاء الحكام الذين لا يتورعون عن القيام بمختلف أنواع الجرائم لتثبيت حكمهم. أليس من العار والخزي التاريخي أن يدافع عن حرية العربي من رضع كراهية العرب والمسلمين؟ سيسجل التاريخ علينا البله والانحطاط عندما يقرأ خطابات بوش التي يصر فيها على إسقاط الاستبداد العربي لمصلحة الإنسان العربي المقموع. بوش ليس معنيا بحريتنا لكن الأنظمة القمعية والشعوب الهائبة فتحت أمامه الباب ليكون صاحب اليد المدرجة من أجل الحرية.

سألته عن الناس والقيادات الدينية. أخذ نفسا عميقا وتأوه ثم قال: "هل تظن أن هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم في البحث عن شرور النساء وفي أحكام غطاء الرأس ونوعية الدشداشة الشرعية سيحررون الأمة؟ هؤلاء لا وقت لديهم للاستماع إلى كلام الله لأنهم مشغولون بعقدهم النسوية العربية القديمة." أما الناس: "فيجلسون في المساجد متلهفين إلى سماع قصص عن العذاب وعن الحور العين." هؤلاء أصحاب شهوات ولا يخشون الله بقدر ما يخافون من المجهول الذي يمكن أن يكون قد خبأ لهم بعض الطيبات يتسلون بها بعد الموت. قلت له أنه يقسو على رجال الدين وعلى الناس عموما فأجاب متعجبا: "وهل تظن أن هؤلاء الحكام كان من الممكن أن يحكموا أناسا مؤمنين؟ لولا أننا أهل خفة لما استخف الفراعنة بنا." واستمر شارحا بأن الرجل يقاس بالفكرة التي يتحدث بها وبالقضية التي تشغله. العظيم يتكلم بالفكرة العظيمة والصغير بالقضية الصغيرة. حجم المرء بحجم قضاياه التي يكرس لها جهده ووقته. الأعداء ينتهكون حرماتنا ونحن ما زلنا مشغولين بفتاة تخرج بلا غطاء رأس أو برجل أكل بيده اليسرى. الأمر بسيط، حسب قوله، إذا أردنا أن يسير الناس حسب ما نرى مناسبا فإن علينا أن نثبت لهم أننا قدوة لهم. فليجمع رجال الدين المجاهدين وليستنفروا الناس وليتحدّوا الحكام، عندها سيجدون أن ذوات الرؤوس المغطاة والمكشوفة تسير خلفهم إلى الجهاد، وكذلك سيفعل الذين يطلقون اللحى والحليقون.

عاد صاحبنا يتحدث عن المثقفين من جديد ليتساءل عن دورهم في خدمة الولايات المتحدة وإسرائيل. سألني عما إذا كان الذين فاوضوا إسرائيل وتوصلوا إلى اتفاقيات مشينة مزارعين أم مثقفين وأساتذة جامعات؛ وعما إذا كان الذين يعاونون أمريكا في غزوها الثقافي والفكري للوطن العربي والعالم الإسلامي حدادين ونجارين أم أصحاب شهادات عليا. وقال محتدا أن المثقفين يجرون وراء المال ولا يترددون في اللهاث وراء الأمريكيين لفتح مراكز للغزو الثقافي التي تدر أرباحا وتوفر المتع. ووجه كلامه لي قائلا أننا نرتكب الموبقات ونظهر على التلفاز نتحدث بغير ما نعمل. يتهم المثقفين بأنهم يتحدثون كثيرا عما يجب أن يكون لكنهم أول الهاربين عند العمل. وتساءل عمن يمكن أن يقود الناس العاديين إذا كان أصحاب العلم والثقافة من أتباع الهزائم.

جادلته بأنه ليس كل المثقفين يلهثون وراء أمريكا وأموالها، وأن هناك العديد من المثقفين الذين يدافعون عن الثقافة العربية والإسلامية ويبثون الوعي حول المخططات الأمريكية. اقتنع بما قلت لكنه أصر أن المثقفين نظريون ولا يحاولون ترجمة ما يكتبون إلى واقع. ويبدو أنه قرأ لماركس والمنظرين الشيوعيين فوصف المثقفين بأنهم طبقة وسطى فرحة بمغادرة مواقعها البائسة الفقيرة ضمن الطبقة الكادحة ومتطلعة إلى الأعلى لتحظى برضا الطبقة الثرية الحاكمة. إنهم لن يستطيعوا العودة إلى قواعدهم السابقة والطبقة "العليا" لن تقبلهم.

قلت له أنه متشائم فأجابني بالنفي. هذه أمة لن تفنى كما قال، لكن المشوار طويل.

وأخيرا طلب مني هذا المزارع أن أبلغ من أعرفهم من المثقفين أن الدفاع عن الذات له استحقاقاته وأن من يتخاذل عن دفعها لا بد أن يدفع بالمقابل ذلا وعارا. عبارات الديبلوماسية والفذلكة الأدبية مفيدة لمن استقرت به الحال ولا يوجد لديه سوى التغزل بحبيبة لوعت قلبه، أما صاحب القضية الذي يرى الأعداء في عقر داره يشربون الأنخاب فليس أمامه إلا أن يطور أدبا عمليا: يقول الكلمة الحق ويصر على تحقيق مضمونها.